

أرينب بنت إسحاق
و تكلمت العيون
حكاية أرينب بين دهاء السلطان
وحرية القلب

رمضان مصطفى سليمان



كان في أرينب بنت إسحاق شيءٌ يجاوز الوصف ، ويكاد يخرج من حدِّ الجمال إلى حدِّ الأسطورة. لم تكن امرأةٌ تُرى فتنسى ، بل كانت إذا مرّت في مجلسٍ خُيِّل إلى الحاضرين أن الهواء قد رقّ فأصبح نسيما ، وأن الضوء قد انحنى ليتأملها اجلالاً لبهائها. جمع الله لها ما قلَّ أن يجتمع في امرأةٍ واحدة: حسن الطلعة، وتمام القوام، ونسباً كريماً، ومالاً موفوراً، ونفساً لم تفسدها الزينة. وكانت إذا ابتسمت بدا في ابتسامتها شيءٌ من العطف ، وإذا سكنت أظهر سكونها حكمةً خفية ، كأنها تعرف من الدنيا أكثر مما تقول.

تزوجها عبد الله بن سلام، وكان رجلاً من بني عمها ، حسن السميت ، رفيع المنزلة ، مروءته تسبقه ، ودينه يظلمه ، وكان من رجال الدولة يوم كانت الدولة تُقاس بما فيها من الهيبة والامتداد ، لا بما عليها من الوهن والخديعة. أحبها حبّ رجلٍ يعرف أن النعمة إنما تُحفظ بالرفق ، وأن المرأة لا تُصان بالصوت المرتفع ، بل بالصدق الهادئ الذي يمدّ بين القلوب جسراً لا يهدمه الزمن. وكانت بينهما حياةٌ تبدو للناس مستقرةً مطمئنة، غير أن السكينة الظاهرة كثيراً ما تُخفي في جوفها ناراً لا يراها إلا من أحسّ بقربها.

وفي دمشق، كان معاوية يرقب كل شيء بعينٍ لا تنام. لم يكن رجلاً يجهل أثر الجمال في نفوس الرجال ، ولا أثر السلطة في إمالة الرؤوس. وكان ابنه يزيد قد تعلق بأرينب تعلق العليل بما يتوهم فيه شفاءه ، حتى صار ذكرها عنده وجعاً مقيماً ، وصار اسمها يطرق قلبه كما يطرق المطر نافذةً في ليلٍ طويل. لم يُظهر أمره في أول العهد ، بل كتمه حتى استحال الكتمان مرضاً ، وأصبح المرض كاشفاً لا ساتراً. فالرغبة إذا كُتِمت طالت، وإذا طالت أحرقت صاحبها من الداخل، وبدت عليه في الشحوب والنتنّ والشرود.

كان يزيد يمضي في أروقة القصر ووجهه في الظاهر على عادته، ولكن قلبه في مكان آخر، هناك عند امرأةٍ لا يملك إليها طريقاً. وما أكثر ما خُدع الناس بمظاهر القوة! فكم من سلطانٍ هزّ الأرض تحت أقدام غيره، ثم هزّه قلبٌ واحد لا يراه أحد. وكان إذا خلا بنفسه قال: ألا يحق لي أن أبلغ ما أشتهي؟ أليست الدنيا في قبضتي؟ ثم ما يلبث أن يرتد إليه صوت آخر، أعمق وأقسى: «وماذا تصنع بسلطانٍ لا يفتح لك باب قلب؟»

رأى معاوية ما يظهر من ابنه، وفهم ما يحاول يزيد أن يواربه من علقته، فعزم أن يستعمل المكر حيث يعجز اللين. ولم يكن في الرجل ضعف الرأي، بل كان يعرف كيف يُلبس الخطة ثوب النصيحة، وكيف تُصاغ الرغبة في لغة المصلحة العامة. أرسل إلى عبد الله بن سلام كتاباً رقيق الظاهر، ثقیل المعنى، يدعو إلى الشام، ويعدّه بفرصة فيها حظّه كامل، ويأمره ألا يتأخر. كان الخطاب من ذلك النوع الذي يفتح الباب من الخارج، ثم يغلقه على صاحبه من الداخل.

قرأ عبد الله الرسالة، وشعر في صدره بشيء من الارتياح، فإن دعوة السلطان لا تُرد عادةً، وإن وعد القرب من الخليفة يحمل إلى النفس وهماً جميلاً بالترقية والاعتبار. لم يكن يشك في نية خفية، فالقلب البريء لا يُحسن دائماً قراءة الوجوه السياسية. حمل رحاله، ومضى إلى دمشق، وفي نفسه رجاءٌ صغير أن يكون القادم خيراً، وأن تكون الدنيا أقل قسوةً مما يظن الناس.

ولما دخل على معاوية، أكرمه هذا إكراماً ظاهراً، وأمر أن يُنزل في دارٍ معدة، وأن يُهيأ له الطعام والراحة، ثم استدعى أبا هريرة وأبا الدرداء، وهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يجلبهما الناس لصحبتهما وصدقهما. جمعهما معاوية كما يجمع الخطيب الشاهدين ليشهدا على كلامٍ يريد أن يكسوه ثوب الحق.

قال معاوية بصوتٍ فيه وقار المصنوعين لا حرارة الصادقين :

إن الله قسم بين عباده النعم، وأوجب عليهم شكرها، وحفظها، والنظر في حقوقها. وما جعلني في هذا الموضع إلا ابتلاءً، ليرى هل أشكر أم أكفر. وقد رزقني الله سلطاناً، ووهبني سعةً، وابتعثني على عباده راعياً وأميناً، فأخاف أن تفسدني الزينة، وأن يغلبني الهوى. وأول ما ينبغي للرجل أن يتفقده، من استرعاه الله أمره، أهله ومن يليه من ذي القربى. ولي ابنه أريد أن أزوجه، وقد رضيت لها عبد الله بن سلام، لدينه وفضله ومروءته وأدبه، وأرجو أن يكون في ذلك حفظٌ لها، وحفظٌ لأهل البيت، وسنةٌ يتبعها من بعدي من يلي هذا الأمر .

نظر أبو هريرة إلى أبي الدرداء، ثم قال بما يشبه الإقرار المسبق على ما أريد لهما أن يقولوا:

أنت أولى الناس برعاية ما أنعم الله به عليك، وأحق الناس بشكر النعمة فيما خصك الله به .

هزّ معاوية رأسه كأنما سمع ما يحب أن يسمعه، ثم قال :

اذكرا له ذلك عني، وقد جعلت الأمر في بنتي شوري، غير أنني أرجو أن توافقتي، وما خرجت بها عن رأيي إن شاء الله.

ثم خرج الرجلان، وقد حملا إليهما من الحديث ما أَراده معاوية لا ما أَراده هما. وفي طريقهما إلى عبد الله كان في قلبيهما شيء من الصمت؛ لأن الصالح إذا اضطر أن يكون رسولاً لخطبة ملتبسة، ضاقت عليه الكلمات. دخلا على عبد الله، وأخبراه بما قاله معاوية، فامتلأت نفس الرجل سروراً واحتياطاً معاً. أي رجل لا يسره أن يخطب ابنة الخليفة؟ وأي نفس لا يرتعش فيها شيء حين تسمع اسم القرب والوصال؟

دخل عبد الله على أرينب، وكانت جالسة في هدوء يشبه حذر الغزلان. أخبرها بما نقل عنهما، وبأن معاوية يرضى لها هذا الزواج، وأن الناس ينظرون إلى الأمر على أنه فرصة ستر ومكانة. ولكن أرينب لم تكن امرأة تُخاطب من طرف واحد، ولا روحاً تُدار كما تُدار الجواهر في صناديق الملوك. رفعت عينيها إليه، ورأت في وجهه شيئاً من التردد، ولم تر في كلامه صراحة الرجل الذي يعرف ما يريد.

قالت بصوتٍ منخفض :

هو كفاء كريم، وقريب حميم، وليس في دينه ولا في نسبه ما يُنكر. غير أن في نفسي شيئاً لا أستطيع أن أدفنه: أخاف الغيرة، وأخشى أن أراحم امرأة كانت قبلي، وأن أقع في قلب بيت لا يسكنه إلا التنازع. فالمرأة وإن كثرت جمالها، تظل ضعيفة أمام فكرة المشاركة، وكيف إذا كان الزمان يحاصرها والسلطة من حولها؟

كانت كلماتها منسوجةً بخيطين: خيط ظاهر من الترفع والورع، وخيط خفي من الإيحاء بما يراد منها. أما عبد الله، فقد سمع ما أَراد أن يسمع، ولم يسمع ما كان ينبغي أن يسمعه. عاد إلى نفسه وهو يقول: «لعلها تقبل، ولعل الأمر يسير كما يظن معاوية». لكنه في عمق الصدر كان يحس أن ثمة باباً يُغلق ببطء، وأن يداً غير مرئية قد بدأت تعبت بمصيره.

في تلك الأثناء، وصل إلى العراق أمرٌ آخر، كأن القدر أَراد أن يضاعف التناقض في المشهد. فقد وجّه معاوية أبا الدرداء إلى العراق يخطب أرينب ليزيد، بعد أن انكشفت رغبة الابن، واشتد ما به من الوجيب الخفي. وكان الحسين بن علي، رضي الله عنه، يومئذ في

العراق، هادئ الخطو، عميق النظرة، يحمل في وجهه جلال البيت النبوي، وفي صمته أثر السكينة التي لا تمنحها السيوف ولا الذهب. أراد أبو الدرداء أن يلقي الحسين قبل أن يباشر رسالته، فذهب إليه، وما إن رآه الحسين حتى نهض إليه إجلالاً، وصافحه بحرارة تشبه اعتراف القلب بأهل الفضل.

أخبره أبو الدرداء بما جاء من أجله، فظل الحسين لحظة صامتاً. ثم قال في صوتٍ مفعمٍ بالمروءة :

اخطب عليها وعلى يزيد معاً، ودعها تختار ما اختاره الله لها. وأعطها من المهر مثل ما عرضوه، فلا يكون المال حاجزاً عن الحق، ولا يكون النسب وحده ميزاناً للطمأنينة

تحركت الكلمات في صدر أبي الدرداء كأنها نورٌ لم يتوقعه. مضى إلى أرينب، وعرض عليها الأمر، وأخبرها أن لها أن تختار بين رجلٍ شاب له سلطان، ورجلٍ آخر عليه من السكينة والجلال ما لا يبلغه الملك. وسألها: من تختارين؟

سكنت لحظة، ثم قالت :

وأَيَّ امرأةٍ تملك أن تُغلق قلبها على ما فيه من الإدراك؟ لقد عرفت يزيد، وسمعت بالحسين. لكني لا أختار على ابن بنت رسول الله أحداً. كيف أضع شفتي في موضع مرّت به شفّتا النبي صلى الله عليه وسلم في المحبة والرضا؟ وكيف أترك ريحانة البيت النبوي لظلّ السلطان؟

كان جوابها أشبه بإنقاذٍ للروح من سطوة السياسة. ولم تكن تلك الجملة مجرد اختيارٍ شخصي، بل كانت إعلاناً صامتاً أن في الدنيا ما لا يُشترى، وما لا يُنزع من قلبٍ أبصر الفارق بين الهيبة والحق. بلغ الجواب معاوية، فاضطرب غضبه كما اضطرب النار إذا صبّ عليها الوقود، وقال متغيظاً :

رُبَّ ساعٍ لقاعد، وأنعم بأم خالد!

وكان في غضبه شيءٌ أبعد من مجرد خسارةٍ في شأن زواج. لقد أحس أن الخطة انكسرت بين يديه، وأن امرأةً واحدة استطاعت أن تقول لا، في زمنٍ كان السلطان فيه يرى أن الرفض إهانةٌ شخصية. وهنا تبدأ السياسة في كشف وجهها الحقيقي: ليست صراعاً على الحكم وحده، بل صراعاً على حق الناس في أن يختاروا دون أن تُكسر إرادتهم.

أما عبد الله بن سلام، فقد بدأ يشعر أن الأرض التي تحته ليست ثابتة. انقطع عنه بعض ما كان يرفده، وضاق عليه العيش، وكُدر صفوه، وأوذي من جهة السلطان، حتى صار يرى في كل صباح امتحاناً جديداً لصبره. ولم يعد ذلك الرجل المطمئن الذي جاء إلى الشام يحمل الثقة في كتفيه. أخذ يتأكل من الداخل، لا لأن المال قلّ فحسب، بل لأن الكرامة إذا جُرحت لا تتدمل بسهولة. ثم إنه رجع إلى العراق، وقد صار بينه وبين معاوية ما يصنع الجفاء ويستدرّ الحذر.

وكان عند أرينب مالٌ له أودعه لديها، فلما همَّ بالمطالبة به، خاف أن تجرده، إذ كيف يطمئن إلى إنصافٍ في قلب امرأةٍ جُرحت ثم سُلِّمت إلى مهبِّ الأقاويل؟ ومع ذلك قصد الحسين، وذكر له أمر المال، وسأله أن يشفع له عندها. لم يُظهر الحسين انفعالاً، لكنه حمل الرسالة إلى أرينب، وأخبرها بما قال عبد الله.

نظرت إليه طويلاً، كأنها تستعيد في ذهنها كل ما مضى: الأيام الأولى، ثم الخديعة، ثم الفراق، ثم ما جرى من تداخل الأهواء بأقنعة المروءة. قالت :

أودعني مالاً، نعم. ولكني لا أدري أهو هذا أم غيره. وما كان في يدي شيءٌ جددته. إنما هو محفوظٌ بخاتمه، لم ينقص منه شيء .

أثنى عليها الحسين، ورأى فيها خلقاً لم تفسده المحن، ثم أدخل عبد الله عليها لتبرئ ذمته. فأخرجت البدر، وردت المال كاملاً، كأنها لا تريد أن تترك للريبة موضعاً. شكرها عبد الله، غير أن الشكر في مثل تلك المواضع لا يكفي، لأن بين الناس وبين ما كسرهم مسافةٌ لا يجسرها الكلام.

ثم فُتحت البُذرة، فحيثما منها دراهمٌ ودنانير في ثوبٍ بين يديه ، وقال لها:

خذي، فهذا بعض ما لي لك، وجزاءٌ لما أصابك من حرج .

فبكت، وبكى، واستحال المشهد كله إلى اعترافٍ متأخر بأن الرغبة حين تختلط بالخديعة لا تلد إلا الخراب. ودخل الحسين عليهما، وقد رقّ لما سمع من نشيجهما، فقال:

أشهد أنها طالق ثلاثاً، اللهم إنك تعلم أنني لم أستكحها لمالها ولا لجمالها، ولكن لأجلها لبعلاها

وكان في قوله هذا شيء من تطهير الرواية من شائبتها البشرية ، ورفعها من مستوى الطمع إلى مستوى الإصلاح. فلم يعد الزواج، في تلك اللحظة، علاقةً بين رجل وامرأة فقط، بل صار موقفًا أخلاقيًا يواجه به الحسينُ دهاء القصر، ويثبت به أن القلب النبيل لا يُستعمل أداةً في لعبة السلطة.

ثم عاد عبد الله إليها بعد أن برئت ذمته، وتزوجها من جديد، فعاشت معه على ودٍ صافٍ، وعرفت الحياة بينهما شيئًا من الصفاء الذي لا تعرفه القصور. لقد تعلّم، بعد النار، أن الحب ليس في الامتلاك، بل في الأمان، وأن المرأة لا تُحفظ حين تُحاصر، بل حين تُصدق، وأن الرجل لا يعلو حين يربح بالمكر، بل حين يخسر هواه في سبيل الحق.

ومضت الأيام، وبقي في القصة ما بقي في النفوس من أثر. لقد كانت حكاية أرينب أكثر من قصة امرأة جميلة، وأكثر من نزاع بين زوجين وخصمين، إنها صورة لعصرٍ اختلط فيه الدين بالسياسة، والفضيلة بالحيلة، والهيبة بالخوف، حتى صار القلب البشري ساحةً من ساحات الصراع الكبير. وفيها يتجلى أن المرأة، مهما وُضعت في مركز الصراع، ليست رقمًا في ميزان الرجال، بل روحًا تسمع وتفكر وتختار، وأن اختيارها قد يهدم ترتيباتٍ كاملةً بناها السلطان على وهم السيطرة.

أما معاوية، فقد بقي في داخله شيء من مرارة لا يبوّح بها ، لأنه كان يعلم أن الخسارة في مثل هذه المواضع لا تُقاس بتقويت امرأة، بل بتقويت السيطرة على المعنى. ويزيد، وإن نال من الدنيا ما نال، ظل في قلبه شعورٌ بأن شيئًا ما أفلت منه يوم أغلق الباب في وجه الرغبة، وأن الإهانة التي لم يقلها علنًا كانت قد استقرت في عتمة نفسه، تنمو كظلٍ ثقيل.

وهكذا لم تكن أرينب مجرد امرأة بين رجلين، بل كانت امرأةً لزمانٍ كامل: زمنٍ يُريد أن يلبس الظلم ثوب النصيحة، وأن يمرر الخديعة من باب الفضيلة، وأن يجعل إرادة الناس تفصيلًا صغيرًا في دفتر الحكم. غير أن القصة، في نهايتها، تردّ للإنسان بعض كرامته؛ إذ تثبت أن في القلب بقيةً تقاوم، وفي الضمير صوتًا لا يموت، وأن الجمال إذا اقترن بالوعي صار قوة، وأن العقّة إذا صحبتها البصيرة غدت موقفًا لا مجرد خُلُقٍ خاص.

ومن يومها، صارت الحكاية تُروى لا لثمتع السامعين فحسب ، بل لتعلّمهم أن السلطة قد تُتقن صناعة الخطابات ، لكنها لا تملك أن تُجبر

قلبًا على حبِّ لا يريده، ولا أن تجعل من المكر قدرًا أبدًا. فثمة دائمًا امرأة تقول لا، ورجلٌ يستعيد نفسه، وضميرٌ يرفض أن يكون خادمًا للخديعة.

وفي آخر السطر، يبقى المعنى الأعماق : أن الإنسان لا يُختبر بما يربحه، بل بما لا يبيع من نفسه حين تُفتح أمامه أبواب المصلحة والهوى. وأن أرينب، في تلك الحكاية، لم تكن جميلةً فحسب، بل كانت امتحانًا للجميع، ونجت هي بما بقي لها من صفاء، بينما انكشفت وجوه كثيرة كانت تظن نفسها مستترة.